

جرترود بل

أداة الاستعمار البريطاني في العراق

دكتور محمود حسن صالح صهي

تكاد الأضواء تسلط على (ت . ا . لورنس) T.E. Lawrence وحده دون غيره ممن قاموا بتنفيذ مخططات بريطانيا في الشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى والسنوات التالية لها ، إذ حظى دون غيره بكل الاهتمام سواء من جانب مادحيه أو قادحيه ، فقد كتب الكثير عن نفسه وعن نشاطه ، كما ظهرت مؤلفات عديدة عنه ارتفع في بعضها إلى مرتبة الاسطورة الخارقة .

ومع ذلك فقد حفظت لنا سجلات التاريخ أسماء شخصيات أخرى لا يقل دورها أهمية وخطورة عن دور (لورنس) ، ومن هذه الشخصيات (جرترود بل) التي ظهرت على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية المرتبطة بالعراق مثلما ظهر (لورنس) على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية المرتبطة بالحجاز والشام .

ولما كان لم يصدر عنها مؤلفات كما حدث (لورنس) فإن مصدرنا الوحيد عن نشاطها تلك الرسائل التي كتبها لعائلتها وأصدقائها ، وقد نشرت زوجة

والدها - ليدي بل - مجموعة من هذه الرسائل في عام ١٩٢٧ ، وبعد عشر سنوات نشرت شقيقتها مجموعة أخرى، إلا أنه يؤخذ على هاتين المجموعتين أنهما حذفتا منها ما وجدت الناشرتان حرجا في نشره . ثم جاءت (اليزابث بيرجين Elizabeth Burgoyne) وهى مدرسة إنجليزية للموسيقى فنشرت مجموعة ثالثة من الرسائل في جزئين صدر أولهما عام ١٩٥٨ ويضم الرسائل التى كتبتها جرترودىل بين عامى ١٨٨٩ و ١٩١٤ وصدر ثانيهما فى عام ١٩٦١ يكمل قصة حياتها لأنه يتضمن رسائلها منذ عام ١٩١٤ حتى وفاتها عام ١٩٢٦ ، وهذا الجزء الأخير هو عمدتنا فى كتابة هذه الدراسة عن جرترودىل بالإضافة إلى بعض المصادر الأصلية التى تناولت تاريخ العراق وبخاصة الوثائق البريطانية .

حياتها الأولى :

ولن يتسع الحديث هنا عن حياة (جرترودىل) الأولى سوى أنها ولدت عام ١٨٦٨ فى عائلة أرستقراطية ، ودرست التاريخ فى جامعة أكسفورد ، ولذلك كانت (جرترودىل) - شأنها شأن (لورنس) - تهم بالتاريخ والآثار ، وابن نجد كنوزها إلا فى الشرق ، فولت وجهها شطره باحثة فى آثاره ، فزارت طهران وجاست خلال إيران وتعلمت اللغة الفارسية حتى ترجمت ثلاثين قصيدة من ديوان حافظ الشيرازى . وفى طهران التقت بجهها الأول (هنرى كادون) الذى كان يعمل سكرتيرا أول بالسفارة البريطانية لكنه مات بعد قليل ، أمامها الكبير فكان لضابط بريطانى (دوتى - ويلى) الذى فقد حياته هو الآخر فى إحدى معارك شبه جزيرة غاليبولى فى إبريل عام ١٩١٥ ، وهكذا قدر (لجرترودىل) أن تقضى بقية حياتها عانسا .

وفي ديسمبر عام ١٨٩٩ - وفي أثناء رحلة لها حول العالم - استقرت بعض الوقت في القدس وبدأت تدرس اللغة العربية . وفي مارس من العام التالي قامت برحلة عبر صحراء الأردن لتعرف على قبائلها ، وكانت تعيش مع البدو وتسمر معهم وتأكل بيدها من إناء واحد معهم وتزيت بزى عربي وعقدت صداقات مع شيوخ جبل الدروز ، ثم اتجهت إلى دمشق وعبرت بادية الشام إلى تدمر ثم إلى لبنان في طريقها إلى وطنها .

وعادت جرزود إلى الشرق عام ١٩٠٢ حيث تابعت دراسة اللغة العربية ، كما زارت الشام عام ١٩٠٥ وبعدها كُتبت مؤلفها : سورية - الصحراء والأرض الزراعية Syria-The Desert and the Sown الذي صدر في عام ١٩٠٨ ولم تلبث أن عادت إلى الشرق عام ١٩٠٩ فزارت حلب ودمشق وكربلاء وآثار بابل، وبنداد وواصل وقرقيش حيث التقت (بلورنس) مع الاستشرق دكتور (هوجارث) .

وفي عام ١٩١٣ قامت برحلة من دمشق عبر صحراء النفود إلى حائل وعادت عن طريق بنداد وتدمر، وقد رسمت للأماكن التي مرت بها خرائط تفصيلية يئنت عليها الكثير من المعلومات عن القبائل وأماكن الماء ، وقد منحتها الجمعية الجغرافية للسلكية ميدالية ذهبية .

من هذا تتضح لنا اللؤهلات التي رشحت (جرزود) لسكى تدخل في خدمة السياسة والمخابرات البريطانية ، لنؤدى دوراً سياسياً هاماً على مسرح الأحداث في الشرق العربي ، حيث قامت بجولات على مدى خمسة عشر عاماً تملت فيها اللغة العربية حتى لقد سحرت العرب بعلاقتها على التحدث بها ، وتعرفت على القبائل العربية الضاربة في البادية وجالست شيوخها ووثقت صلاتها بهم وعرفت كل شئ من مضاربهم .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى في أغسطس (آب) ١٩١٤ كانت جرزود في إنجلترا ، وقد كتبت في سبتمبر (أيلول) من العام نفسه تقريراً إلى الكابتن ديدس Deedes في إدارة العمليات العسكرية الذي رفعه بدوره إلى سيراودارجرى Ed. Grey وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد شرحت جرزود في تقريرها الحالة السياسية في شبه الجزيرة العربية والشام بما كان له أكبر الأثر على المسئولين الذين كانوا يخططون للسياسة البريطانية ، لا بوصفه عرضاً للشخصيات والجماعات والاتجاهات السياسية في الأقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية وحسب ولكن لأن التقرير تضمن أيضاً رد الفعل المتوقع في هذه المنطقة في حالة دخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا ، وقد أوضحت جرزود في هذا التقرير حاجة سالم بن مبارك الصباح شيخ الكويت ، وخزعل خان شيخ الحمرة وابن سعود أمير نجد إلى حماية بريطانيا ضد الترك .

وإلى جانب ذلك فقد اعربت جرزود عن اعتقادها بأن السوريين وخاصة في الجزء الجنوبي من الشام (فلسطين) - وأهميته لمصر معروفة - يميلون إلى بريطانيا ، وأن هذا الشعور قد تضاعف بسبب الكراهية التي يكنها السوريون للنفوذ الفرنسي .

أما في بغداد ، فقد كانت جرزود ترى - كما جاء في تقريرها - أن كفة المصالح البريطانية ترجع كفة للمصالح الألمانية ، وذلك لأهمية العراق بالنسبة للهند . وتضيف جرزود أن السيد طالب النقيب مصدر للتأهب ، وهو لم يتلق عوناً منا ، ولكن نجاناً كانوا على علاقات طيبة معه ، والكويت يعتمد في حياته علينا ، أما ابن سعود فإنه يتوق للحصول على اعتراف منا ومن الممكن كسبه كعليف

لنا ، واعتقد أنه يمكننا أن نجعل الخليج إلى منطقة ساخنة بالنسبة للترك . وليس هناك أحد من الزعماء يحب الحكم التركي ، ويتمتع كل من الزعيمين المرينين عبد القادر باشا في بغداد والسيد طالب في البصرة بنفوذ كبير في إقليمه يفوق نفوذ الباشا التركي كما أن شيخ الحمرة عامل له أهميته وهو حليف لنا ، وإذا حدث أن دخلت تركيا الحرب ، فإنه من الممكن أن يتهمز الوجوديون العرب هذه الفرصة لتخلص من الحكم التركي ، وليس من المرجح أن يبدأوا هذه الخطوة ولكن ليس من الصعب توجيههم هذه الوجهة .

أما للمشكلة بالنسبة لسوريا فهي أن الفرنسيين قد احتجزوها لانتهم على الرغم من أن الشعب — كما تقول جرتروود — يريد بريطانيا لفرنسا .

وقد أشار ديدس عند قدم هذه الرسالة لرؤسائه إلى أن ماورد بها « أكدته تماما التقارير التي يبعثها للفتشون البريطانيون في الأقاليم العربية » . (1)

ولاشك أن تقرير جرتروود صادف هوى في نفس المسؤولين البريطانيين وخاصة في حكومة الهند ، الذين كانوا يبدون الاهتمام بالعراق والخليج قبل نشوب الحرب العالمية بفترة غير قصيرة . ولم يكن اهتمام البريطانيين بالعراق وليد هزوف الحرب العالمية الأولى وحسب وإنما كانت بريطانيا أكثر الدول الأوروبية اهتماما بهذا التطور أثناء القرن التاسع عشر خصوصا بعد أن صارت بريطانيا تواجه خطر سياسة ألمانيا في الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten تلك السياسة التي أثارت قلق الحكومة البريطانية وخوفها من وصول النفوذ الألماني إلى المحيط الهندي عبر العراق والخليج ، ولذلك أسرع بريطانيا بإغلاق الطريق في وجه النفوذ الألماني بإبرام اتفاقتها للعرفة مع شيخ الكويت في عام ١٨٩٩ ، فقد كانت بريطانيا تعتبر النفوذ الألماني أشد خطرا من النفوذ الروسي ، واشتط سخط بريطانيا لأن منافسا كبيرا

يتوغل في مجال بريطانيا التجارية، ويقيم نفسه مواجهة مستمرة «بحسبنا الجميع على امتلاكها (٢)

وإذا كان للشروع الألماني لمد خط سكة حديد بغداد سبباً من أسباب الحرب العالمية الأولى فإن ذلك يرجع إلى أهمية السياسة أكثر مما يرجع إلى الأهمية الاقتصادية وإلى جانب ذلك فقد كان للمراق أهمية أخرى ألا وهي مجاورته لحقول النفط في إيران وخاصة عبادان حيث كانت توجد أعظم مصافي النفط البريطانية ، حتى أنه قبل إعلان الحرب رسمياً على الدولة العثمانية تواترت الاخبار عن احتمال قيام الترك بالهجوم على عبادان ، وكان من الممكن وصول القوات التركية إليها من البصرة

وإلى جانب ذلك فقد كان من رأى لورد كرو Crowe وزير الهند أن أمم ما كانت تستهدفه الحملة البريطانية على العراق هو التأثير المعنوي على الشيوخ العرب (٣) فقد كانت بريطانيا ترغب في تقوية مركز الزعماء العرب المواليين لها في منطقة الخليج مثل شيخ الحمرة وشمس السكويت وابن سعود وشهد أزرهم بتقديم دليل مادي على قوة بريطانيا يهدى من روع هؤلاء الحكام الصغار في مواجهة الدعوة للجهاد والتي كان ينتظر أن يعلنها الخليفة العثماني ضد دول الرفاق . وقد تأكد هذا فيما جاء في خطاب اسكويت Asquith رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ أمام مجلس العموم البريطاني في الثاني من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ من أن الهدف من إرسال قوة إلى العراق «هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا في الخليج وحماية حقول النفط وعلى العموم المحافظة على هبة بريطانيا في الشرق» (٤).

وفي ١٦ أكتوبر (تشرين أول) غادرت قوة الهند يومباي بقيادة البريجادير جنرال دالمان Dalmain وكانت التعليمات الصادرة إليه تنص على حماية أنابيب

النفط الى الأهواز ومصافيه في عبادان وتأكيد معونة بريطانيا للزعماء العرب المحليين ضد الدولة العثمانية وفي ٢٣ أكتوبر تم احتلال جزيرة البحرين وانخضت قاعدة عسكرية للحملة، وفي اليوم التالي لدخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا نزلت القوة الى البر عند الفاو حيث يصب شط العرب في الخليج (٥) .

وتوالى الامدادات من الهند، وبعد سلسلة من الاشتباكات مع القوات التركية استطاعت القوات البريطانية القادمة من الهند بقيادة الجنرال باريت Barrett احتلال البصرة في ٢٢/٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ حيث أذاع صير برسي كوكس Percy Cox كير الضباط اللياسيين المراقبين للحملة بياناً بالقبلة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية على الرغم من حالة الحرب القائمة بينها وبين الدولة العثمانية — لا تحصل ضئيلة للاهلين ، وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والمدالة في ظل العلم البريطاني والإدارة البريطانية طالما وقفوا موقف الحياد بين القوات البريطانية والتركيا وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا. (٦)

وقد بدأت جرترود أعمالها في الحرب في الجبهة الغربية وذلك بتسجيل الجرحى والمفقودين ، وحتى في أثناء عملها هذا لم تكف عن التفكير في الشرق العربي عامة والمراق خاصة ، ففي ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ كتبت تمبر عن امنيتها في أن تتواجد في العراق ، وشوقها لسماع نبأ احتلال القوات البريطانية لبمداد واخذت تكتب إلى معارفها تطلب موافقتها باخبار حملة العراق .

ومع بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ فتح أمام جرترود باب الشرق ، فانه نظرا لمرتها بقبايل شمال شبه الجزيرة العربية صار من الممكن الاستفادة من جرترود ومعلوماتها ، وتأكد دكتور دافيد هوجارث أن صلواتها ستكون

مفيدة للغاية ، وعندما أبرقت القاهرة إلى لندن تستدعى جرتروود ، لم تضيع جرتروود وقتا طويلا ، ثم كتبت إلى زوجها إليها لكي توافيها بكتبتها وخراطةها التي كانت تعتقد أنها ستكون في حاجة إليها في عملها الجديد .

وفي القاهرة التقت جرتروود بكل من هوجارث ولورنس ، وكان عملها في البداية يقتصر على تزويد سجلات المخابرات البريطانية بالمعلومات عن القبائل العربية وشيوخها واعدادها ، وهو عمل كانت مؤهلة له ولا ينافسها فيه أحد .

رأى جرتروود في أماني الشريف حسين وأطماع فرنسا :

ومنذ نشوب الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية ، صار للمسؤولون البريطانيون يفكرون في اسهل الوسائل لانزال المزعجة بالدولة العثمانية ، وأدركت بريطانيا أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه عرب المشرق العربي الاسيوي في الصراع الدائر ، خاصة وقد سبق أن أبدى هؤلاء بعض مظاهر السخط على الحكم التركي ، فكان من الطبيعي أن تحاول بريطانيا النيل من الامبراطورية العثمانية مستخدمة رعاياها للعرب ، وقد قدر البريطانيون الاهمية العسكرية لقيام ثورة ضد الاتراك في أقطار المشرق العربي ، فأبرمت بريطانيا الاتفاق مع الادريسي في عمير في أبريل (نيسان) سنة ١٩١٥ ، ومع ابن سعود في نجد في ديسمبر (كانون أول) من العام نفسه ، إلا ان أهم اتفاقات بريطانيا مع زعماء العرب كان اتفاقها مع الشريف حسين بن علي أمير مكة الذي وقع عليه اختيارها لقيادة ثورة العرب ضد الدولة العثمانية لاسباب عسكرية وسياسية وخصوصا مواجهة الدعوة إلى الجهاد بخلق زعامة دينية تنافس الخليفة العثماني وتضمف مركزه بين المسلمين .

وعلى الرغم من أن غاية ما كان يصبو إليه الشريف حسين هو ضمان استقلاله

التام في الحجاز فإنه لم يلبث أن اتسعت آماله لتكوين دولة عربية تضم بلاد الشرق
العربية الآسيوية (٧) خصوصا وأن القوميين العرب للمركزين في الشام في ذلك الوقت
كانوا هم أيضاً يبحثون عن زعامة دينية تقود ثورتهم ضد الترك حتى لاتوصم حركتهم
بالمروق ، والخروج على طاعة خليفة المسلمين ، وذلك بعد أن ضجوا من عسف
أحمد جمال باشا في الشام ونصب المشائق التي راح ضحيتها الرعيل الأول من الشهداء
العرب الذين اعدموا في ساحة البرج ببيروت في الحادي والعشرين من أغسطس (آب)
١٩١٥، إلا أن الزعماء الوطنيين العرب — وقد اجتمعوا على الثورة ضد الترك بالاعتقاد على
مساعدة بريطانيا واتفقوا على تولى الشريف حسين زعامة هذه الثورة — قد وضعوا
عظما يتضمن المطالب التي أرادوا أن تكون أساس مفاوضات الشريف حسين مع
بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم بروتوكول دمشق ، وأهم ما جاء فيه تلك
الحدود التي طالبوا بأن تتعرف بريطانيا باستقلال الأقطار العربية الواقعة بداخلها
والتي كانت تشمل الشام بحدودها الطبيعية والمراق بكل أقاليمه ، وشبه الجزيرة
العربية .

وبدأت للباحثات بين الشريف حسين والمسؤولين البريطانيين في القاهرة وهي
المروفة بمراسلات الحسين مكماهون منذ الرابع عشر يوليو (تموز) ١٩١٥ ، إلا
أن الحكومة البريطانية حاولت الارتبط — في الاعتراف باستقلال العرب —
بالحدود التي نص عليها بروتوكول دمشق ، وطالب بها الشريف في رسالته الأولى إلى
مكماهون ولكن الشريف الح في رسالته بتاريخ ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ على
ضرورة تسليم بريطانيا بالحدود التي يطالب بها العرب .

وفي مواجهة مطالب الشريف ، وادعاءات فرنسا حليفة بريطانيا أبدت جرترود
رأيا في أطماع كل من الشريف وفرنسا في التقرير الذي بمث به في ٢٠ ديسمبر
(كانون أول) ١٩١٥ إلى لورد روبرت سسل فقد ذكرت :

(أنه قد أديرت للمفاوضات مع الشريف بمهارة ، وطالما أنه في استطاعتنا اجتدابه والإبقاء على صلته بنا فلاخوف من قيام حركة دينية كبرى ، فانه هو الشخص الوحيد الذى يستطيع إثارة حرب دينية مقدسة ، أما الترك الذين يدعون إلى هذه الحرب بإيماء من الألمان فإنهم لايقدرّون على الإقناع بها هذا العام قدرتهم عليه في العام للماضى .

والمشكلة هي هل نستطيع المحافظة على ارتباط الشريف بنا ؟ من المعلومات التى لدينا يبدو أنه قد صار يحتل مركزا مرموقا في شبه الجزيرة ، ولكن قوته روحية وايدت عسكرية ، وإذا تقدم الترك من الشام جنوبا بقوة كبيرة فإنهم يستطيعون الضغط عليه وهو لايقوى على مقاومة هــذا الضغط ولاشك في أنه من المحتمل أن يتهاوى أمام خليفة الدولة العثمانية . وفي الوقت نفسه فإننا تلقى ضغطا وصعوبات من جانب الفرنسيين وحكومة الهند ، والشريف على حق - كما اعتقد - في رفض بحث المسألة الميرية منفصلة عن بقية الاقطار ، لأن الصحراء لا تكفى نفسها ، ولذلك فإن من يسيطر على الاسواق في الاقاليم الزراعية يجب أن يسيطر على البدو وسكان الواحات ، وقد ظهر الشريف معقولا ، ومن الممكن أن نصل إلى اتفاق ، ولكن ليس على أساس التنازل عن كل سوريا ، وأن المطالب التى قدمها يكون متوخرا تجعل سوريا الفرنسية تمتد من البحر المتوسط إلى دجة ، ومن الحكمة أن نمد للفرنسيين جبل الأمل ، وعندما تحين لهم فرصة بحث إدارة سوريا بهذا الامتداد فمن المحتمل أن يتبينوا أنها عمل اكبر من استعدادهم للقيام بأعبائه ، ولكن غزل الحبال الطويلة يحتاج إلى وقت طويل ولايتوفر هذا الوقت حاليا .

إن حركة عربية قوية إذا أقيمت على قدميها فقد تطرد الفرنسيين من شمال

أفريقيا بمثل سهولة التي تطردنا بها من مصر . واعتقد أنه يجب على الفرنسيين أن يقيموا بالاسكندرونه وكليكية بالإضافة إلى لبنان وبيروت .

ويتمثل ضعف هذه الفكرة في أن العرب لا يستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم ولا يوجد أحد مقتنع بهذا أكثر مني ، وعندما يلجأ إلينا العرب طلباً للمون - وهذا ما سيفعلونه - فإن الفرنسيين لن ينظروا إلى ذلك بارتياح (٨) .

رحلة جرترود إلى الهند :

لقد كان للسولون البريطانيون عن الشرق للعربي فريقين : فريق الساسة والمسكربين للتمر كزين في القاهرة ويتبعون دار للندوب السامي البريطاني وأطلق عليهم اسم للدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة ، وفيما بعد أطلق عليهم اسم للكتب العربي Arab Bureau وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشئون العربية مثلت.أ. لورنس، رونالد ستورز Ronald Storrs وجلبرت كلايتون Gilbert Clayton وجورج هوجارث G. Hogarth وجرترود بل أما الفريق الآخر فكان مركزه الهند ولذلك كان يسمى بالمدرسة الهندية ، وتزعم هذا الفريق سيربرسي كوكس Percy Cox وارانولدولسن Arnold wilson والسكاين شيكسبير Shakespear وعلى الرغم من اتفاق للدرستين على أهمية الأقطار العربية ومواردها بالنسبة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى إلا أنه كان ثمة خلاف كبير بينهما ، فبينما كانت مدرسة الهند تهتم في اللقاه الأول بالعراق وإيران وثروتها النفطية وكذلك منطقة الخليج العربي، فإن مدرسة القاهرة كانت تهتم بقناة السويس وكل ما من شأنه حمايتها ، وعلى الأخص بلاد الشام، تنفيذاً للسياسة التي رسمها كاتشر منذ كان معتمداً بريطانياً في مصر (٩) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهند تعتقد أنه في استطاعة الحلفاء عامة

وبريطانيا خاصة إحراز النصر في الحرب العالمية دون الاستعانة بالعرب ودون الاتجاه إلى إثارتهم ضد الترك ، الأمر الذي دعت إليه مدرسة القاهرة ، فقد كانت مدرسة الهند تخشى أن يؤدي تحريض بريطانيا للعرب على الثورة ضد الخلافة الإسلامية إلى إثارة مسلمي الهند ، كما كانت تخشى أن تصبح القومية العربية مصدر تهديد لبريطانيا ذاتها فتقلب على المصالح البريطانية في البلاد العربية ، بحيث يصبح من الصعب إخضاع العرب لنفوذ بريطانيا بعد الحرب . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تأمل أن تنجح بريطانيا ، إذا شجبت العرب على الثورة ضد الترك وساعدتهم في هذا السبيل - في الاحتفاظ بصداقة العرب بعد الحرب بحيث لا يكون ثمة مجال للخوف على مصالح بريطانيا في المنطقة . ولذلك كان من رأى أعضاء مدرسة الهند ألا تلوح بريطانيا للعرب بأية وعود استقلالية وألا تشجعهم في أمانيهم القومية كما كان من رأيها إقامة حكم بريطاني مباشر في البلاد العربية في غرب آسيا . أما مدرسة القاهرة فقد كانت نجد إصدار الوعود للعرب وإظهار العطف على أمانيهم القومية ، وكانت ترى منح العرب استقلالاً محدوداً تحت سيطرة بريطانية مقنعة ، وأن يهدد بتسلم مقدرات هذا الاستقلال المحدود إلى حكم من العرب الموالين لبريطانيا ضماناً لاحتراز النفوذ البريطاني ، ومن هنا كانت مدرسة الهند تمارض إشعال ثورة عربية ، تلك الثورة التي رشحت مدرسة القاهرة الشريف حسين لزعامتها ، بل كانت تقاوم الإغواء على الهاشميين وتؤيد التحالف مع ابن سعود لضيف مركزه خارج شبه الجزيرة العربية .

ولذلك كانت المفاوضات البريطانية مع ابن سعود تجري من أجل تحقيق هدف قريب وهو ضمان صداقة أمير نجد ، أو على الأقل وقوفه على الحياد أثناء العمليات الحربية في العراق ، ولم تكن هذه المفاوضات تهدف إلى أبعد من ذلك طالما أن

مدرسة الهند — التي تولت هذه المفاوضات — لم تهتم كثيرا باقامة دواة عربية تحمل
عجل الامبراطورية العثمانية .

وقد لفت الخلاف بين الهند ومصر حول السياسة البريطانية إزاء الحرب نظراً
جرترود وهي في القاهرة ، ولم تكن مرتاحة لاستمرار هذا الخلاف ، لأن من شأنه
كما قالت في رسالة إلى والدها في ٢٤ يناير (كانون ثان) ١٩١٦ أن يؤدي إلى
انعدام التعاون بين إدارتي الخبازات في البلدين « وكلما استمر هذا الوضع ازدادت
الحالة سوءاً وخطراً ، وهم (في الهند) لا يملكون بأحوال المناطق الغربية من شبه
الجزيرة ونحن (في مصر) لانظم عن المناطق الشرقية منها ، ولذلك فأنني سأذهب
إلى الهند ، ولا أدرى إذا كانت هذه الرحلة سوف تأتي نفاذة ولكنها حديرة
بالمحاولة على كل حاله ، وسوف أتمم الكثير لأنهم (في الهند) سوف يسمحون لي
بالبحث والتنقيب في سجلاتهم عن العرب حتى أرى ما يمكن إضافته منها إلى معلوماتنا
ونحن في حاجة إلى أن ننشئ للشرق الأدنى مكتبا دائماً للخبازات هنا (في القاهرة)
على أن يستمر في العمل بعد انتهاء الحرب ، وهذا المكتب لا يستطيع العمل بدون
معمونة السلطات البريطانية في الهند ، وهذا هو الموضوع الرئيسي الذي سأتناوله بالبحث
مع نائب الملك في الهند (١٠) وفي الثامن والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٦
أبحرت جرترود على ناقلة الجنود بوربيديز Euripides فوصلت كراتشي في السابع
من فبراير (شباط) ومنها إلى دلهي حيث التقت بلورد هاردينج Hardinge نائب
الملك في الهند وبعد انتهاء مباحثاتها معه غادرت الهند في السابع والعشرين من الشهر
نفسه .

جرترود في العراق :

وفي طريق عودتها من الهند زارت جرترود العراق ، فزادت في البصرة ضيفاً

على آل كوكس ، وكان سير برسي كوكس كبير الضباط السياسيين في الخليج ، وعلى الرغم من أنه سبق لجرترود مقابلته إلا أن هذه الزيارة كانت فاتحة أقوى وامتد صداقتها في الفترة الأخيرة من حياتها . وفي البصرة عهد إليها بالاشتراك في تحرير فهرس عن أما كن شبه الجزيرة العربية ، كان يجرى إعداده لحكومة الهند وقد التقت في هذه الأثناء بـ *Dobbs* الذي كان وقتئذ ضابطا سياسيا بالعراق وبذلك التقت جرترود بثاني اللندويين الساميين اللذين عملت معهما في العراق .

وفي أثناء وجودها بالعراق أوفد لورنس من القاهرة إلى العراق في إبريل (نيسان) ١٩١٦ ، وكانت المهمة التي عهد بها إليه هي التوسط في فك الحصار التركي للقوات البريطانية في الكوت ولو برشوة القائد التركي خليل باشا (١١) .

وفي أثناء وجودها بالعراق أيضا بذلت جرترود بعض الجهود لاستمالة ابن الرشيد وكان لا يزال يؤيد الترك ، ولذلك التقت في أوائل مايو (أيار) ببعض رجال ابن الرشيد الذي كانوا يعرفونها منذ رحلتها في حائل قبل الحرب واستقت منهم بعض الأخبار ثم بثت معهم بعض الرسائل إلى أمير حائل وإلى بعض الشخصيات الأخرى التي تعرفها ، وكانت جرترود تعلق الآمال على كسب أمير حائل إلى جانب بريطانيا أو على الأقل الوقوف على الحياد ، وكان سير برسي كوكس يؤيد مساعي جرترود ولقد فشلت محاولة جرترود ولم يتزحزح ابن الرشيد عن موقفه ، ولذلك فقد اتهمته في رسالتها إلى ذويها في ١٥ يوليو (تموز) بالحق الذي لا يتصوره عقل ، وعبرت عن أملها في أن يثور عليه أهل شمر وقيموا أميراً آخر مكانه (١٢) .

ولقد صارت مهمة جرترود في العراق هي العمل كحلقة اتصال بين القاهرة والبيصرة ، وانتهزت هذه الفرصة لجمع مزيد من المعلومات عن العراق وقباله المستعينة بكثير من الشخصيات البريطانية من العاملين في العراق مثل الكابتن ايدى *Eadie*

الذى كانت يعرف عن القبائل في العراق أكثر من أى شخص آخر في العراق .
« مستر ادموندز Edmonds (١٣) الذى كان وقتئذ ضابطاً سياسياً
في سوق الشيوخ ومنه استقت كثيراً من المعلومات عن البادية والحضر في العراق .
فكانت تركب للخيول مع مرافقيها من الضباط البريطانيين تجوب القرى وتذهب
لزياره أعيانها وتتناول معهم الطعام ، وفي المساء تستدعى اليها الأهالى للحصول
منهم على المعلومات التى كانت تجرى وراءها ، وتحاول للتقرب منهم بشق الوسائل
بأداء بعض الخدمات لهم ، وفي هذه الاجتماعات تدار القهوة والسجائر على الحاضرين
كل هذا دون أن يتطرق اليها التنب وهي تعمل في الجو القائظ ، فقد عبرت - في
خطابها في ١٦ يونيو عن سمادتها في العراق ، وقد صورت في هذا الخطاب سوء
حالة الحملة البريطانية على العراق ، تلك الحملة التى أعادت إلى ذاكرتها الحملة على
القرن في منتصف القرن التاسع عشر (١٣) .

وفي هذه الجولات زار جرتروود الكثير من الجهات مثل النصيرية وسوق
الشيوخ والقرنه ، وعلى أثر عودتها ون هذه الجولات إلى البصرة عينت جرتروود
مندوبة رسمية للقاهرة ، وبذلك صارت جزء من الحملة الهندية على العراق .

ولم تهدأ جرتروود بل تابعت دراستها للقباني ، فامضت عيد رأس السنة (ديسمبر
سنة ١٩١٦) في قلعة صالح مع مسترسان جون فيليبي ، واستمرت خلال الشهر
الأولى من العام الجديد (١٩١٧) تستقبل الزعماء العرب .

وقد تمكن البريطانيون من استعادة الكويت في ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٧
وعلى أثر ذلك عهدت الحكومة البريطانية إلى الجنرال مود Maude قائد الحملة
على العراق بالتقدم إلى بغداد التى سقطت في يده في الحادى عشر من مارس (آذار) ،
وذاع الجنرال مود في التاسع عشر من الشهر نفسه ييانا باللغتين العربية والانجليزية

أعلن فيه أن القوات البريطانية لم تأت إلى العراق غازية بل محررة ، وإن بريطانيا والدول المتحالفة معها ترغب وتأمل في أن ينهض الجنس العربي ليحتل مكانه بين شعوب الأرض . ودعا العراقيين إلى المساهمة في إدارة شئونهم المدنية بالتعاون مع ممثلي بريطانيا السياسيين الذين يرافقون القوات البريطانية (١٤).

وبعد أن سقطت بغداد في أيدي القوات البريطانية انتقلت إليها جرترود — فوصلتها في ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٧ ، حيث بدأت في تكوين صداقات جديدة مع كثير من الشخصيات العربية الجديدة إلى جانب أصدقائها القدامى ، وظل للكتب العربي بالقاهرة يرسل جرترود ويوزدها بالمعلومات عن أحوال الحجاز والشام التي تهم للصالح البريطانية عن قرب ، وكانت هي الأخرى تكتب إليهم عن أحوال العراق ، فقد كانت جرترود تعتبر أنها جميعا فصول في رواية واحدة .

وأضيف إلى جرترود عمل آخر هو تحرير صحيفة محلية اسمها (العرب) كان يساعدها في إصدارها كاتب لبناني هو سليم البستاني ، كما قامت بجولات في كثير من مدن العراق وبخاصة في مراكز الشيعة في كربلاء وولنجف والحلة والكوفة حيث التقت بمجتهدي الشيعة في أواخر عام ١٩١٧ وأوائل عام ١٩١٨ ، حتى لقد أصبح الناس يحبون لهذا الحدث الذي لم يسبق له مثيل : امرأة أجنبية تجاس إلى مجتهدي الشيعة تحمى معهم القهوة وتنصت إلى أحاديثهم في اهتمام بالغ ، ولقد أطلق عليها الناس لقب الخاتون أي السيدة الشريفة .

ولقد اهتمت جرترود على وجه الخصوص بتوثيق صلاحها بكبار ملاك الأراضي وزعماء العشائر الذين كانوا الفئة الوحيدة التي لا تمنى من قسوة ظروف الحرب ، وكان لكل منهم نفوذ وسلطة في منطقته ، وقد اهتمت السلطات البريطانية بسكسب تأييدهم باعتبارهم قوة لها أهميتها في تحقيق الأمن وخدمة الصالح البريطانية والحيلولة

دوت تقديم للساعدات الترك ، فمدت السلطات البريطانية إلى الاتفاق مع هؤلاء الشيوخ والزعماء وجعلهم ممثلين أمامها عن شئون عشائرم ومناطقهم فبا يختص بالأمن وحماية للواصلات والأموال البريطانية وجمع الضرائب ، فأعدت عليم الأموال واغنتهم من الضرائب ، ومكنتهم من الانتفاع بالأراضى الأميرية ومنحتهم الاقطاعات الكبيرة مما كان له أثره فى تكوين النظام الاقطاعى فى العراق .

جرنروه والتصريح الإنجليزى الفرنسى المشترك :

وعندما أحست بريطانيا وفرنسا بالسخط يجتاح الشرق العربى بمد تحريره من الترك لمقدم وفاء الدولتين للعرب بالوعود التى بذلت لهم أثناء الحرب ، أسرعت الدولتان بإصدار التصريح الإنجليزى الفرنسى (٧ نوفمبر ١٩١٨) الذى وعده بتجميع إقامة حكومات وإدارات وطنية فى كل من الشام والعراق ، ولقد أعلن ارنولدولسن كبير الحكام السياسيين بالنيابة معارضته للتصريح والسياسة التى أملتته التصريح ، فى ١٦ نوفمبر (تشرين ثان ١٩١٨) بحث إلى وزير الهندسة ملنا أن التصريح « سوف يورطنا فى مشاكل جسيمة كذلك التى أثارها وعدود مكماهون لشريف مكة » مؤكدا اتصال العراق عن بقية الأقطار العربية ، مطالبا بماملته ماملة مختلفة وفصل قضيته عن القضايا العربية فى البلاد الأخرى^(١٥) . إلا أن للسئولين البريطانيين فى لندن أبلغوا ولسن أن الهدف من التصريح كان توضيح الموقف فى سوريا على الرغم من إشارة التصريح إلى العراق .

ولقد كان ولسن وغيره من الاستعماريين البريطانيين يعتبرون احتلال العراق أوج النشاط البريطانى لأنه يؤمن الطريق إلى الهند ، كما يضمن حماية الهند من روسيا البلشفية التى تعاطف خطرهما عن ذى قبل بعد أن باتت اطامها تنفيذها مبادئه

اجتماعية. ولذلك عارض ولسن الاقتراح الذى قدمه لورنس إلى حكومته بأن يوضع العراق الأذنى تحت حكم الأمير عبد الله والأطلى تحت حكم الأمير زيد وسورية تحت حكم الأمير فيصل على أن يظل الحسين ملكا على الحجاز ولا تكون له أية سلطة زمنية على الأقاليم الثلاثة خارج الحجاز . وعندما أبلغت الحكومة البريطانية ولسن باقتراح لورنس اعتبرها - فى ٢٥ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ - غير عملية وأن وضع أبناء الشريف فى هذه الراكز ليس فى مصلحة بريطانيا أو سكان البلاد، وأن تقسيم العراق لا تبرره الأحوال السياسية والاقتصادية لأن الولايات العراقية الثلاث يجب أن تكون وحدة واحدة تحت السيطرة البريطانية الفعالة ، «ولذلك فإننى استحث حكومة صاحب الجلالة من أجل استثناء هذه البلاد (العراق) تماما وإلى الابد من أى تسوية مع الأشراف » .

إلا أن مس بل كانت تعتقد أن ارتو له ولسن قد جانبه الصواب فى اعتقاده بأن أهل البلاد لن يقبلوا أن يتولى عليهم حاكم عربى من الأشراف أو من خارج العراق محوما ، وكانت ترى أن أهل العراق لن يقبلوا أميرا عمليا لأنهم لا يتقون فى أحد منهم ، ولكنهم سوف يؤيدون أى رئيس عربى خصوصا إذا كان يستند إلى تأييد مندوب سام بريطانى قسوى (١٦) .

ورغم غموض التصريح وبسببه عن تحقيق أمانى العرب إلا أن جرترود لم تكن راضية عنه من حيث أثره على الأهالى فى العراق وقد بعثت برأيها إلى اللشوليف البريطانيين فى مذكرة بتاريخ فبراير ١٩١٩ تحت عنوان « تقرير اللصير فى العراق » وقد ذكرت (جرترود) أن نشر التصريح الإنجليزى الفرنسى - مهما كان منزاه السياسى فى أى مكان آخر - فإنه كان ضرورة يؤسف لها فى العراق ، « فإنه على

الرغم من أنه لم يفعل أكثر من تأكيد النوايا التي سبق إعلانها عند احتلال بغداد (تصريح مود) إلا أنه كان يختلف عنها في ناحية هامة ، إذ أنه بينما صدر تصريح الجنرال (مود) ونتيجة الحرب لا تزال موضع شك مما جعله ضرورة عسكرية ، فإن التصريح الإنجليزي الفرنسي صدر بعد انتصار الحلفاء ، وقبل إصداره كان أهل العراق قد شهدوا النهاية الناجحة للحرب وسلموا بأن بلادهم ستبقى تحت السيطرة البريطانية المباشرة وكانوا سيخضعون بالخضوع لحكم القوة ، إلا أن التصريح فتح الباب أمام احتمالات أخرى وأتاح الفرصة للدسائس السياسية من جانب العناصر المتعصبة خصوصا وأن التصريح صدر بعد أن عاد إلى بغداد عدد من الأشخاص الخطرين على الهدوء في العراق حيث أخذوا في بث الدعاية ضد البريطانيين ، وبما زاد من تأثير التصريح تلك الأنباء التي أذاعتها (رويتز) عن ذهاب الشريف فيصل إلى مؤتمر الصلح كمدوب عن الدولة العربية المستقلة (١٧) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت جرتروود تعتقد أن تصريح ٧ نوفمبر لا يتعارض مع وضع العراق تحت الحماية البريطانية ، كما لا يتعارض مع الحماية وضع زعيم عربي على رأس الدولة في العراق — متخذة من قبل الحرب مثالا لذلك ، وأشارت إلى أن الرأي العام في العراق لا يمتزج على تعيين عربي على رأس الدولة ، وأنه يوافق على وضع أحد أبناء شريف مكة في هذا المركز إلا في حالة وجود مرشح مصري أكفأ (١٨) .

وفي السابع من مارس ١٩١٩ وصلت جرتروود إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح وقد انضم إليها — بناء على استدعاء الحكومة البريطانية — كل من (ارنولد ولسن) نائب كبير المحاكم السياسيين في العراق ، (هو جارث) من للكنب العربي بالقاهرة . علاوة على (لورنس) فكونوا جهة من المشتغلين بمسائل الشرق العربي ، للاتفاق

على رأى موحد تمشد به الحكومة البريطانية . ثم عادت (جرترود) إلى بغداد في ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ ، وتوافد الزوار على بيتها بالمشرات فكانت تقعد معهم جلسات يحضرها بعض رجال الإدارة بالعراق .

ولم تلبث (جرترود) أن صارت تقدر ارتباط الصالح البريطاني في العراق بالصالح الفرنسية في الشام وأنه لا يمكن بحث التسوية العراقية منفصلة عن التسوية السورية ، ولذلك فإنها — في ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ — طالبت بأنه على الحكومة البريطانية أن تصل إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية على أيسر الصلح مع تركيا وذلك بعد أن انسحبت الولايات المتحدة — عليها لعنة الله (كما تقول جرترود) وتفضت بدعاه من مشاكل العالم القديم .

جرترود والثورة في العراق :

ولم تلبث الثورة أن نشبت في العراق منذ أواخر عام ١٩١٩ ، وتجمعت عدة أسباب أدت إلى انفجار مرجل التنضب في كافة أنحاء البلاد ، وبخاصة سياسة (ارنولد ولسن) التي اتسمت بالتمنع والشدة لمواجهة بلاد تطالب بالحرية ، وقد عمّت الثورة أنحاء العراق ، الذي شهد وحدة بين طوائفه المختلفة ، وحدة بين السنين والشيمة، وعقدت الاجتماعات السياسية في الساجد حيث قرئت الأشعار الوطنية تطالب المحتلين بالخروج من البلاد .

وإزاء هذه الثورة العارمة التي اجتاحت العراق ضد الاستعمار البريطاني وكلفت الحكومة البريطانية الكثير من الأموال والأرواح ، علاوة على ضياخ هيبة بريطانية في المنطقة ونزعزع مركزها ، ظهرت عدة آراء تقترح حل مشكلة العراق، فهذا (لورنس) يقترح إقامة إدارة عربية تحت رئاسة أمير من الأسرة الهاشمية في الحجاز، على أن يقوم إلى جانبه (سير رسي كوكس) كمتعمد بريطاني يخطط به عدد من

السشارين لإبداء النصح وتقديم العون إلى هئته الإدارة فقد صار (لورنس) يعتقد أنه من الممكن السيطرة على العراق بواسطة الضباط العراقيين الساخطين على الحكم التركي، وبذلك يمكن خيمة الصالح البريطانية بأقل التكاليف عن طريق (العرب الأصدقاء) الذين تساندهم بريطانيا عندما يتولون حكم البلاد المباشر بأنفسهم.

وقد كانت (جرترود) تؤيد رأي (لورنس) حتى لقد اقترحت - أثناء وجوده في بريطانيا بعد أن طرده الفرنسيون من سورية - أن أفضل اقتراح يمكن أن تقدم به لحكومتها هو أن يقوم (سير برسي كوكس) بتتويج فيصل ملكاً على العراق في كنيسة (وستمنستر Westminster Abbey) ثم يعوران معاً إلى العراق (خطاب جرترود في ١٦ أغسطس ١٩٢٠).

ولا شك أن هذا الرأي انتهى مارت تمتنقه (جرترود) هو أساس الخلاف بينها وبين (أرنولد ولسن) والذي كان يتبع الشدة في قمع الحركة الوطنية في العراق ويطالب بإقامة حكم بريطاني مباشر صريح لا حكماً غير مباشر يخفى وراء واجهة عربية كما كان ينادى (لورنس) و (جرترود) وقد كان (ولسن) يقدم أهمية العراق الاستراتيجية ويرى أن البريطانيين - باحتلال العراق - قد تمكنوا من «دق أسفين في العالم الإسلامي» وبذلك منعنا نجمع المسلمين ضيقاً في الشرق الأوسط، ويجب أن تكون سياستنا الاحتفاظ ببلاد العراق وعدم إدماجها سياسياً في بقية أجزاء العالم العربي أو العالم الإسلامي.

إلا أن الحكومة البريطانية - إزاء ما يحمله من خسائر من جراء الثورة - أخذت بوجهة نظر (لورنس) و (جرترود) ولذلك قرر (ولسن) ترك العراق،

ولو أنه لم يقدره إلا في أكتوبر ١٩٢٠ عندما وصل (سير برسي كوكس) الذي أعفى من مهام منصبه في طهران .

وإذا انتصرت وجهة نظر (جرترود) فقد ثمرت عن ساعد الجدد من أجل تيسير سبيل تحقيقها ، ولذلك قامت - ياونها (سان جون فيلي) الذي حضر إلى بغداد مع (سير برسي كوكس) - بمثل قائمة بأسماء أعيان البلاد الذين كانت (جرترود) ضرورة التقاء (كوكس) بهم ، وقائمة أخرى بمن يتعين عليه أن يقيم معهم صداقات شخصية وأخذت على عاتقها توجيه الدعوات لهؤلاء ، وكانت النتائج - كما تقول (جرترود) - مرضية .

وفي كل خطوة بخطوها (كوكس) في تنفيذ المخطط الجديد للحكومة البريطانية من أجل السيطرة على العراق كان يسترشد بأراء (جرترود) فقد صارت سكرتيرته الشرقية منذ ١٨ أكتوبر ١٩٢٠ ، ويتضح ذلك عندما واجهته مشكلة من يتولى رئاسة الحكومة الانتقالية التي كانت ستدير البلاد في فترة الانتقال ، ورغم أن (طالب باشا النقيب) زعيم البصرة كان أبرز شخصية في العراق في ذلك الوقت ، كما كانت (جرترود) معجبة به لعدم اشتراكه في الاضطرابات ، إلا أنه كان معروفاً بقوة الشكينة ، ولم يكن من السهل إخضاعه لإرادة البريطانيين ، ولذلك اقترحت (جرترود) على (سير برسي كوكس) عرض منصب رئيس الحكومة العراقية المؤقتة على السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب بغداد ، رغم أنه كان معروفاً بجزوفه عن التورط في الشؤون العامة حفاظاً على سمته الدينية (١٩) ، هذا إلى جانب شيخوخته واعتلال صحته ، وقد وافق نقيب بغداد على تولي المنصب ، ولما لم يكن من السهل تخطى (طالب النقيب) وإغفاله تماماً فقد استطاعت (جرترود) و (فيلي) إقناعه بتولي منصب وزير الداخلية في هذه الحكومة على أساس أنه سيكون الرجل الثاني ، وأنه إذا مرض الرئيس أو توفي فإن (طالب باشا) هو الذي سيحل محله (٢٠).

ومما تجدر ملاحظته أنه عندما عرض منصب وزير الدفاع في هذه الحكومة للوقت على جعفر العسكري ، أسرع إلى (جرتروود) يسألها النصح فيما إذا كان اشتراكه في الحكومة للوقت التي تعتبر « خدعة بريطانية » سوف يقضى على سمته الوطنية ، فأبلغته (جرتروود) أن ثقة أولئك الذين حاربوا في سورية قد تزعزعت بما اعتبروه تخلي بريطانيا عن (فيصل) (٢١) ولذلك فهي تعتقد أن العراق يجب أن يختار أميراً من الأسرة الهاشمية وأن الحكومة البريطانية لن تقف في وجه هذا الاختيار ، وظلت (جرتروود) تلح من أجل اختيار أحد أبناء الشريف حسين أميراً دائماً على العراق خلفاً للحكومة الانتقالية ، وقد اقتضت الحكومة البريطانية بأن أفضل من يتولى عرش العراق في ظل السيطرة البريطانية هو (الأمير فيصل) لمقامه الديني ودوره ودور والده في الثورة على الترك ومعاونة بريطانيا ، وصلته بكثير من العراقيين ممن عملوا معه في سورية ، ورغبة بريطانيا في إزالة ما علق بمشاعره من أسياء ومرارة لتخليها عنه لفرنسا ، واعتبر المسئولون البريطانيون أن فشله في الاحتفاظ بالعرش السوري سيجمعه أكثر إدراكاً لواقع الحال وأكثر روية في معالجة الأمور .

ومن ناحية أخرى أخذت (جرتروود) توجه بعض الصحف المحلية لتحقيق الأهداف التي كانت تسمى إليها ، فقد نظمت مثلاً بعض الاجتماعات مع محرر صحيفة (العراق) - التي كانت في نظرها معتدلة - بحيث كان يلتقي بها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً يستقى منها الأخبار ويتزود بالأنكار .

وأخيراً قرر (ونستون تشرشل) وزير المستعمرات البريطاني عقد مؤتمر في القاهرة ، يحضره السياسيون اللشنتلون بشئون الشرق العربي مثل (هربرت صمويل) للندوب السامي في فلسطين و (سير برسي كوكس) للندوب السامي في العراق علاوة

على لورنس وغيره من المستشارين ، وكانت (جرترود) تنسوي أن تفضل نفسها - أثناء غياب (كوكس) في القاهرة - بالعمل على تشكيل الرأي العام في العراق وتوجيهه الوجهة التي تريدها ، ومن ذلك اجتماعها (بجمع المسمى) وطلبت منه إعداد الرأي العام لاحتمال تولية أحد أبنائه ملك الحجاز على عرش العراق ، وفي حديث مع (نوري السعيد) أشارت (جرترود) إلى أهمية تولي حاكم عربي على العراق ، وعندما سأل عن كيفية التغلب على الصعوبات التي قد تصادف (الأمير فيصل) أجابت بان الوسيلة الوحيدة هي عدم التردد بل السير قدماً في هذا السبيل . إلا أن (جرترود) أعلنت أنه ليس من الممكن تقرير شيء قبل اجتماع القاهرة للرتقب ، ولكنها أوصت (نوري السعيد) بان يبذل غاية جهده ، من أجل وقف أي نشاط سياسي يقوم به حزب (العربية الفتاة) ، وتهدئة العناصر الوافدة إلى العراق من سورية ، أثناء غيابها مع (سير رسي كوكس) في القاهرة ، بعد أن صمم (كوكس) على اصطحابها معه إلى القاهرة .

وقد كانت وجهة نظر كل من (كوكس) و (جرترود) تتفق مع وجهة نظر (نيرشل) ، إذ طالب (كوكس) بإسقاط الانتداب على العراق الذي كان قد تقرر في مؤتمر (سان ريمو) والعمل على إبرام معاهدة مع الدولة العربية بعد إقامتها واعتبرت (جرترود) أنها ستكون خطوة رائدة « إذا جاءتنا الشجاعة الكافية لاتخاذها » ، واعتبرت فكرة إحلال معاهدة محل الانتداب - أي مزاوله سلطات ومهام الانتداب من خلال معاهدة - ضربة عبقرية Stroke of Genius لأنها توفق بين أمانى الوطنيين في الاستقلال وبين مصالح بريطانيا لأن كلمة انتداب تعني الخضوع وهو أمر لم يبد بجمته العراقيون ، أما معاهدة (بين الطرفين الساميين للتعاقد) فيبدو فيها كأن طرفاً قد وافق بحرية على بعض القيود على سيادته ، وبذلك يمكن أن نجد للقبول دون أن توهم بالاستعمار .

وفي مذكرة (سرية للغاية) بشت بها جرترود إلى حكومتها بتاريخ ٧ فبراير (شباط) ١٩٢١ أشارت إلى أن مؤتمراً على وشك الاعتقاد في لندن وباريس لإعادة النظر في معاهدة سيفر وأن نمة اتجاهات في الحكومة البريطانية تتحد بهم عرض العراق إلى أمير تركي ، من أجل تهدئة الوطنيين للترك ، وقد اعترضت جرترود على هذا الاتجاه ، على أساس أنه سيكون من الصعب إقامة انتداب بريطاني على العراق تحت حكم أمير تركي ، وفي الوقت نفسه سيكون من الصعب على تركيا المرحلة تولى الانتداب على العراق ، وأضافت جرترود أن الوطنيين في العراق لا يريدون الترك ولكن نظراً لسخطهم على الوضع القائم في العراق ، فإنهم يستخدمون شبح الترك لإخراج الإنجليز ثم يقومون بإخراج الترك ، وأشارت جرترود إلى أن المجموعة التي تفكر هذا التفكير ولو أنها صغيرة العدد إلا أنها قوية الصوت ولسان حالها صحيفة الاستقلال (٢٢) .

ولذلك فقد كان من بين القرارات التي اتخذها مؤتمر القاهرة في مارس ١٩٢١ ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق المستقل الذي يرتبط بريطانيا بمعاهدة ، ولو أن الحكومة البريطانية أرادت أن تكسب تولية فيصل صفة شرعية بتقرير إجراء استفتاء حتى تبدو توليته وقد نالت موافقة أغلبية الشعب العراقي .



إلا أن الطريق أمام (فيصل) لم يكن سهلاً مهدواً . فقد كان غريباً عن البلاد لا يثق فيه الشيعة لسببته ، بل أن عدداً كبيراً من السنين لم يكونوا راضين عن علاقة أبيه بالإنجليز وثورته على خليفة المسلمين ، هذا إلى جانب منافسة عدد غير قليل من المرشحين ، كان أخطرهم (طالب باشا النقيب) الذي كان يعتبر نفسه أحق من (فيصل) بعرش العراق « من ذا أحق مني ببلادى ؟ ألا يجوز أن يحكم العراق عراقى ؟ » وقد أحس (طالب) بأن بريطانيا — رغم تذررها بأنها لن تولى فيصلاً على العرش إلا

استناداً إلى موافقة الشعب - تتخذ كل الوسائل من أجل فرض فيصل وقتلك أخذ (طالب) يتصدى لهذه المحاولة ، فمارض - بصفته وزيراً للداخلية في الحكومة المؤقتة - في إصدار صحيفة تتولى العناية لفيصل مما حدا (بالسيربرسي كوكس) إلى أن يطلب من (جرترود) بدء العمل في هذه الصحيفة دون موافقة (طالب باشا) كما تولى (سيربرسي كوكس) إرسال البرقيات يدعو فيها (الملك حسين) لإرسال ابنه ولم ترسل الدعوة بالوسائل العادية حتى لا يوقفها (طالب باشا) .

وقد غضب (طالب باشا) وهو يرى هذا التدخل السافر لفرض (فيصل) وأظهر سخطة في مأدبة كان قد أقامها لمستر (لاندون) Percival Landon مرسل (الديلي تلغراف) والتي (طالب) في اللأدبة خطاباً أعلن فيه أن هناك بمض للوظفين المحيطين بالمندوب السامى متحيزون وبمارسون ضنفا وتدخلا في الانتخابات (وكانت جرترود على رأس من يقصدم (طالب باشا) وهدد (طالب) بإثارة الأهلين والشيوخ وأنه سيلجأ إلى الإسلام وإلى الهند ومصر والاسنانة وباريس ، وصارت (جرترود) ترى في حديث (طالب) دعوة إلى الثورة لا تختلف كثيراً عن الدعوة إلى الجهاد (٢٣) .

وقد ترتب على ذلك أن دبر أمر اعتقاله ونقل إلى فاو ومنها إلى سيلان ، ثم رحل إلى أوروبا ولم يعد إلى العراق إلا عام ١٩٢٥ . وقد اغتبطت (جرترود) لهذا الإجراء وأحست بأن عبئاً ثقيلاً قد انزاح وأن العقبة الكبرى قد زالت من طريق فيصل ، خصوصاً وقد أعفى (سان جون فيلي) مستشار الداخلية ونصير (طالب باشا) من منصبه ، كما استطاعت الحكومة البريطانية أن تثني بقية المرشحين - وعلى رأسهم نقيب بنداد - عن منافسة (فيصل) .

وعند ما وصل (فيصل) إلى العراق ، وعلى الرغم من تأييد الحكومة المؤقتة

ومساندة البريطانيين ، فقد كان استقباله فائراً ، وكان معظم الناس منصرفين عنه حتى أنه في اليوم التالي لوصوله إلى بغداد مرت (جرتزود) بالسراى التي كان ينزل بها اترك له بطاقتها لكنه استدعاها وجلس إليها بينما يحاونه ، فطمأنته وأكدت له أن (سيربرى كوكس) معه قلباً وقالبا .

ومما تجدر ملاحظته أن السكاليين في تركيا بمجرد أن سمعوا بأن في نية بريطانيا تنصيب (فيصل) على عرش العراق بدءوا في بث دعاية قوية تأييداً للشيخ أحمد الإدريسي السنوسي كنافس لفيصل على عرش العراق ، كما أن الحكومة الفرنسية — إلى جانب تلميحاتها إلى قنصلها في بغداد بالأيقم اعتباراً لفيصل — رصدت مبلغاً من المال لمساعدة السنوسي في الدعاية ضد فيصل وبريطانيا على السواء . وأخذ السيد أحمد السنوسي يرسل العديد من الخطابات يحض القبايل والأفراد على الثورة ضد الإنجليز وفيصل بإسم الإسلام ، حتى لقد شمر فيصل بالياس وصار يفسر في منادرة البلاد إلى إنجلترا لولا أن (جرتزود) ومعه (جعفر المسكرى) و (كورنواليس) مستشار فيصل أقنعوه بالثبات وعدم ترك البلاد حتى لا يقال إنه اختلف مع (سيربرى كوكس) (٢٤) .

وأخيراً نجح (فيصل) في الاستفتاء بفضل موازنة السلطات البريطانية التي لجأت إلى كثير من الوسائل للتحايل من أجل توليته وتم توجيه ملكا على العراق في الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢١

وحتى بعد أن توج فيصل ظل القلق يراوده عن مستقبله ، حتى لقد كتبت (جرتزود) في ٢٥ سبتمبر ١٩٢١ أنها عند ما طلبت من (فيصل) إحضار زوجته وأولاده إلى العراق عبر لها عن عدم اطمئنانه ، مما دعا (جرتزود) إلى أن توحى إليه بعقد اجتماعات مع شخصيات معينة لتدعيم مركزه وتمهدت هي بأن تقدم له قائمة بأسماء الشخصيات التي يمين عليه نوثيق صلاته بهم .

وهكذا كان فيصل مدينا بالفضل (جرتود) حتى أنها عندما اطمانت إلى توليته وزوال العقبة، التي كانت في طريقه فكرت في السفر إلى (وطنها) بريطانيا لقضاء الصيف ، وعندما أبلت فيصلا بذلك طلب منها ألا تتكلم عن (وطنها) « فوطنك هنا ، ولكن يمكنك أن تقولى انك ذاهبة لرؤية والدك » .

رأى جرتود في سياسة بلادها إزاء للصهيونية :

وإضافة لهذه الراء لا نستطيع أن نحتتم هذه الدراسة دون أن نشير إلى موقف جرتود من السياسة التي اتبعتها بعض ساسة بريطانيا إزاء الصهيونية ، تلك السياسة التي تظهر بوضوح في إصدار تصريح بلفور في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ . ويكنى في هذا اللقاع أن نستشهد برسالة جرتود إلى زوجة أبيها في ٢٥ يناير (كانون ثان) ١٩١٨ والتي ذكرت أنها « تسكره تصريح بلفور الصهيوني بخصوص سوريا ، وفي اعتقادى أنه لا يمكن تنفيذه ، فان البلاد (فلسطين) غير ملائمة للمرة للأهداف التي يتطلع اليها إلى تحقيقها ، فهي بلاد فقيرة لا تصاح لتطور كبير ، وثلاثا سكانها من العرب المسلمين الذين ينظرون إلى اليهود نظرة ملؤها الكراهية والحقد ، وفي اعتقادى أنه مشروع (الوطن القومي اليهودى) مصطنع (غير طبيعى) لا صلة له بالحقائق ، وأتمنى له الفشل الذى يستحقه والذى سوف يتحقق » (٢٥) .

خاتمة اللطاف :

وبعد أن أدت (جرتود) دورها بنجاح واتممت مهمتها بدأ نجمها في الأضواء وخاصة بعد أن تولي (سير هنرى دوز Dobbs) منصب اللندوب السامى في العراق ، ولم تسكن (جرتود) طي وفاق معه ، فعينت بأمر الملك فيصل مديرة لتجنب

الأثار إلى أن ماتت عام ١٩٢٦ ، وقد كتب لورنس إلى والدها عام ١٩٢٧ : أنه :
« على يقين من أنها ماتت سعيدة راضية ، لأنها أنجزت المهمة السياسية التي انيطت
بها على أحسن وجه وهي مهمة من أخطر المهام التي وكلت إلى امرأة ، لقد انتهى
دورها التاريخي ، كما انتهى دورى من قبل . »

وليس أول على تقديره ووطنيتها وللخدمات التي أدتها لبلادها من تلك العبارة
التي اختتم بها شين ليزلى Shane Leslie مقدمته لأجزاء الثاني من كتاب
اليزابث بيرجوين والتي قال فيها أنه لو أرادت بريطانيا أن تخلد النساء للألئ عشن
ومتن في سبيل الإمبراطورية أثناء الحرب العالمية الأولى ببناء مقبرة في كنيسة
وستمنستر فإنه لا يمكن اختيار جثمان أشرف من جثمان جرترود بل لتمثيل هؤلاء
السيدات .

الهوامش

- (1) Burgoyne Elizabeth: Gertrude Bell from her Personal Papers (1914—1926) pp.14—15.
- (2) Foster: The Making of Modern Iraq, pp. 32—5.
- (3) إيرلاند: العراق ، دراسة في تطوره السياسي . ترجمة جعفر خياط (١٩٤٩)
ص ٤ — . .
- (4) Foster: Ouv. Cit pp. 37—8.
- (5) Wilson, Loyalties, Mosopotamia Vol -1, pp 6—9
- (6) Idid. pp.10—11 : Appendix 1, p. 311.
- (7) Young: The Independent Arab (1933) p.273.
- (8) Burgoyne: Ouv. Cit. p.82.
- (9) Graves: The Life of Sir Percy Cox, p.206.
- (10) Burgoyne: Ouv. Cit, pp.33—43.
- (11) Garnett: Letters of T.E. Lawrence pp.202—3.
- (12) Burgoyne: Ouv. Cit.pp.38—43.
- (13) Kurds, Turks and Arabs. مؤلف كتاب
- (13A) Burgoyne : Ouv. Cit. p 42.
- (14) Wilson : Ouv. Cit. Vol. I, p. 238.
- الحسني : تاريخ العراق السياسي الحديث ج ١ ص ٨٦ — ٨٨ .
- (15) إيرلاند — خياط : المرجع السابق ذكره ص ٩٩ — ١٠٠
- (16) Wingate Papers—School of Oriental—studies—
University of Durham.

(17) Burgoyne: Ouv. Cit. pp. 105—9.

(18) Wingate Papers, Dnrham.

(19) Burgoyne: Ouv. Cit. p.174.

(20) Philby: Arabian Days p. 193.

(21) Burgoyne: Ouv. Cit. p. 193.

(22) Ibid pp. 204—5.

(23) , , 213—4.

(24) , , 243.

(25) , , 75.